موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

خطبة جمعة

تأملات في سورة الإخلاص

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشَّيخُ لم يراجع التَّفريغ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[الخطبة الأولىٰ]

الحمد لله، ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ ﴾ [الأنعام]، أحمَد ربي –جل وعلا– وهو رب العالمين، وإله الأوَّلين والآخِرين، لا إله إلا هو الملك الحق المبين.

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، مُقِرًّا له بوَحدانيته في ربوبيته، وبوحدانيته في أُلوهيته، وبوحدانيته في أسمائه وصفاته وأفعاله، له الحمد علىٰ أن جعلنا من الموحِّدين، له الحمد علىٰ أن جعلنا له ذاكرين شاكرين، لا إله إلا الله كلما وحَّده الموحِّدون، وكلما أعرض عن توحيده المشركون . .

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، هو الذي بشَّر وأنذر، وكان نذيرًا بين يدي الساعة، دل الناس علىٰ توحيد الله، ونهاهم عن الطاغوت والشرك والكفر بأنواعه، وكان بالمؤمنين رحيمًا، وكان رحمةً للعالمين، وطُوبىٰ لِمَن قبل بشارة المصطفىٰ ﷺ، وخُسْرَىٰ لِمَن أعرض عن ذلك، فلم يتَّبع هداه، ولم يقتدِ به، ولم يَقْتَفِ أثره عليه الصلاة والسلام . .

اللَّهمَّ اجعلنا من المُقْتَفِينَ أثرَ نبيه، ومِنَ المهتدين بهَدْيِه، ومن المُسْتَنِّينَ بسُنَّته، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علىٰ عبدك ورسولك محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسَلِّمِ اللَّهمَّ تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ...

فيا أيها المؤمنون، أُوصيكم ونفسي بأعظم وصية ؛ ألا وهي تقوىٰ الله، ألا وهي الخوف من الله، ألا وهي خشية الله جل وعلا.. لِيَكُنْ في قلوبنا من مخافة الله، ومن خشيته، ومن الرَّهَب من لِقائه ما يحجُزنا عما لا يحب الله – جل وعلا – ويرضىٰ ؛ فإن الخوف من الله من أعظم العبادات .

وأهل هذا الزمن ضعُف عندهم هٰذا الخوف من الله جل وعلا. . ضعُف عندهم الخوف والرَّهَب من الجليل جل وعلا، والله –سبحانه– وصف لنا المطهَّرين من الذنوب والآثام، وهم الملائكة، بقوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ﴾ [النحل]. وها نحن اليوم في كثير منا من ضعُف الخوف في قلبه، فلم يَخَفِ الله – جل وعلا – من فوقه، ولم يفعل ما يُؤْمَر .

فأسأل الله – جل وعلا – أن يُعْمُرَ قلبي وقلوبكم بالمهابة منه، وبالخوف منه – جل وعلا – وبخشيته، وأن يجعلنا كالذين وصف من الصالحين والأنبياء بقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ ﴾ [الأنبياء].

أيها المؤمنون، إنَّ المتأمِّل المتدبِّر في القرآن لا بد له أن يكون ذا عِظَةٍ، لابد أن يتَّعظ وأن يُحْدِثَ القرآنُ في قلبه خشيةً، وأن يحدث القرآن في قلبه رَغبةً، وأن يحدث القرآن في قلبه محبَّةً لله جل وعلا، في رَغَبه وقوله ومحبته ؛ فإن أصل الدين إنما قام علىٰ الاستسلام للقرآن، وتلقي هذا القرآن وتدبره، وعلىٰ

أن يكون العبد رافعًا الرأس مُصغِيًا منيبًا لله جل وعلا، ولكتابه جل جلاله ؛ لأن الكتاب يُحْدِث إنابة، ويحدث عِلمًا بالله، ويحدث رَغبًا في الله جل وعلا، وفيما أعد لأوليائه . .

لهذا – أيها المؤمنون – تدبروا هذه السورة القصيرة المعدودة آياتُها، ولكنها العظيمة عند الله جل وعلا، والعظيمة في القرآن، تلك السورة هي سورة الإخلاص التي يَستخِفّ أكثرنا أن يقرأ بها في صلاته رغبةً في الاختصار، ولو عقَل لكانت هٰذه السورة محدِثةً له في قلبه رَغبًا ورَهَبًا ومحبةً لله جل وعلا، قال لنا ربنا ﷻ: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص].

قال نبينا – عليه الصلاة والسلام – في هذه السورة: «**إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(١)، هذه الآيات المعدودة تعدِل ثلث القرآن، فمَن تَدَبَّرَها وعلِم ما فيها فإنه قد علِم ثلث القرآن؛ لأن القرآن ثلاثة أقسام، وأول هذه الأقسام وأعظمها توحيدُ الله – جل وعلا – في ربوبيته، وتوحيد الله – سبحانه – في أُلوهيته، وتوحيد الله – جل وعلا – في أسمائه وصفاته، وهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد ابتدأ الله – جل وعلا – بها القرآن في قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، فهذا توحيد الربوبية، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة] فهذا توحيد الأسماء والصفات، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] وهذا هو توحيد العبادة، فلا يُعبد إلا الله جل جلاله، ولا يُستعان إلا بالله جل جلاله .

ولهذا لما بدأ بالربوبية، ثم بالأسماء والصفات، وكان المشركون يقرون بالربوبية وبكثير من الأسماء والصفات ؛ دل علىٰ أنه يلزم من إقرارهم أن يوحِّدوا الله جل وعلا، ولهٰذا لما ذكر الله – جل وعلا – حقيقة توحيد الربوبية والأسماء والصفات في الفاتحة ذكرها مطلقة غير منسوبة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حقيقة مطلقة ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ حقيقة مطلقة، فلما أتىٰ إلىٰ توحيد العبادة إلىٰ توحيد الله – جل وعلا – في توجه العبد وعباداته واستعانته خص أهل الإيمان فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، نسب ذلك إلىٰ المؤمنين بالله الذين يعلمون حقيقة بعثة محمد عليه الصلاة والسلام .

سورة الإخلاص اشتملت علىٰ هذه الأنواع الثلاثة، لهذا وجب علىٰ العبد أن يكون قلبُه دائمًا مع هذه الأنواع من توحيد الله جل وعلا، فإن الإيمان يَضعُف بضعف أنواع التوحيد، فإذا اختل جزء منها فإنه ليس بموحِّد، وليس بمسلم، وليس بمؤمن، بل هو مشرك بالله جل وعلا .

لهذا تدبر هذه الأنواع وما جاء في القرآن من ذكرها تجد أن أكثر القرآن وغالب آيات الله – جل وعلا – في كتابه إنما هي في هذه الأنواع الثلاثة ؛ في ذكر الربوبية، وفي ذكر الألوهية، وفي ذكر الأسماء والصفات.

تأمل قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يعني: **أَحَدٌ في ربوبيته**، فلا ربَّ معه يدبر الأمر، ولا مالكَ غيرُه،

---

(١)أخرجه البخاري (رقم ٤٧٢٦) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم (رقم ٨١١) عن أبي الدرداء، و(رقم ٨١٢) عن أبي هريرة .

ولا خالق غيره، ولا محييَ غيره، ولا مميت غيره، ولا ممرِض غيره، ولا مُغْنِيَ غيره، ولا شافِيَ غيره، ولا رافعَ غيره، ولا خافض غيره، ولا مُعِزَّ غيره، ولا مُذِلَّ غيره، لا متصرف في الأمر إلا هو، فهو الأحد في ربوبيته، حتىٰ النفَس الذي تتنفّسه فهو بتصرف الله، حتىٰ الحركة فهي بتصرف الله، فما شاء الله كان وما لم يَشَأْ لم يكن .

كذلك هو أحد في أسمائه وصفاته، لا مثيل له في أسمائه وصفاته.

كذلك هو أحد في أُلوهيته، فلا إله معه ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾[النمل:٦٠]، هو أحد في استحقاقه العبادة، فكل عبادة توجه بها الناس إلىٰ صنم أو وثن حجر أو شجر أو ولي أو عبد صالح أو فاسق أو نبي أو مَلَك أو جِنِّي، فإنما هي باطلة وظلم وطغيان ؛ لأن الله أَحَد في ألوهيته، فلا أحد يستحق العبادة إلا هو ﷻ، لا إلٰه إلا الله، «لا إله إلا الله» كلمة قامت عليها السَّمٰوات وقامت عليها الأرض، ورددها كل مخلوق، ورددها كل مخلوق إلا الكفرة الذين أشركوا بالله وجعلوا معه آلهة أخرىٰ.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ تقريرًا لألوهيته، يعني: هو وحده الذي تَصْمُد إليه المخلوقات طلبًا لحوائجها، حتىٰ المشركون إذا ركِبوا في البحر وأتتهم المُدْلَهِمَّات ذكروا توحيد الله ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[العنكبوت] حتىٰ المشرك يعلم حقيقة توحيد الله، فإذا أتته المدلهمات وأتته الأمور التي تؤذيه؛ فإن الله – جل وعلا – صَمَدٌ يَصْمُد إليه الناس في حوائجهم كما هو أَحَدُ تفسيري السلف لهٰذه الآية .

ثم قال تعالىٰ: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ مبيِّنًا ربوبيته ﷻ واستغناءه عن أن يكون مولودًا أو والدًا، رادًّا بذلك – جل وعلا – علىٰ المشركين، وعلىٰ اليهود، وعلىٰ النصارىٰ، وعلىٰ سائر أصناف الكفرة الذين ألحدوا بالله وجعلوا له الصاحبة والولد .

ثم ختم السورة بقوله جل وعلا: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ ليس لله كُفءًا، وليس لله كُفُوًا أحدٌ في رُبُوبِيَّته، ولا في أُلُوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد الذي تفرد بالربوبية، وتفرد بتصريف الأمر وتفرد بأنواع الكمال .

هذه السورة القصيرة اشتملت علىٰ هذه الأنواع الثلاثة من توحيد الله، بل اشتملت علىٰ ثُلُث القرآن كما قال المصطفىٰ ﷺ .

إذا كان كذلك فلنتدبر سريعًا ما في القرآن من أنواع التوحيد الثلاثة، فلنتدبر ما في القرآن من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات:

قال – جل وعلا – مبيِّنًا لنا **ربوبيته** ﷻ: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ يعني المشركين ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يونس] يعني: أفلا تخافون الله! كيف توقنون وتعتقدون أن الله هو الرب المدبِّر المحيي المميت المعِز المذِل الذي بيده التدبير، وبيده الأمر، ثم لا تخافونه؟! ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[يونس:٣٢] .

أيها المؤمن، إن توحيد الربوبية بِذِكْرِ تنوُّع تصرف الله في آياته وفي ملكوته ؛ إنما يُحْدِث في قلب المؤمن ذُلًّا لله جل وعلا ؛ لأنه يعلم أن هذا الملكوت علىٰ سَعَته وعلىٰ عِظَمِه وأنه مهما بلغ مما نعلم وما لا نعلم فإن الذي يُدَبِّرُه هو الله جل وعلا.. ثم تدبَّرْ وتأمَّلْ وصف الله – جل وعلا – لنفسه ولربوبيته يوم القيامة بقوله جل وعلا: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[الزمر:٦٧]، وأما الأرض فقال – جل وعلا – في وصفها: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾[الزمر:٦٩] ووصف الله الأرض بأنها قَبْضَتُه جل وعلا، ثم تدبر كُرْسِيَّ الرَّحمٰن – جل وعلا – كيف أنه وسِع سبع سماوات، وأن السَّمٰوات السبع في الكرسيّ كسبعة دراهم أُلْقِيَتْ في تُرْس، وأما الكرسيّ بالنسبة إلىٰ العرش فهو كحَلْقة مُلقاة في فلاةٍ من الأرض، والله – جل وعلا – أعظم من ذلك، محيط بكل شيء، فكيف يهرب العبد؟! وإلىٰ أين المفر؟! وإلىٰ أين تذهب من الله جل وعلا؟! ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التكوير].

تدبر توحيد الربوبية ؛ فإن العبد إذا آمَنَ حقيقةً كان في قلبه من التوكل علىٰ الله ما يكون عنده الخَلْق هزيلين ضعفاء مستغنين بالله جل وعلا، قويًّا بالله جل وعلا، فإذا ضعُف الإيمان بالربوبية، وإذا ضعُف التوكُّل فإنك تجد العبد يلتفت إلىٰ الخلق ويرىٰ أنهم يملِكون له ضرًّا ونفعًا، والله – جل وعلا – يقول لعباده: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام] أيُّ إيمان يحدُث في قلوبنا إذا نحن تدبرنا ذلك!

ثم تأمَّلْ أن الله – جل جلاله – الذي هو ربك، والذي هو إلهك الذي توجهت إليه هو ذو الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلا، له الأسماء المتضمِّنة لصفات الكمال التي لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوه، فمُلك الناس ناقص، لكن مُلك الله كامل مطلَق، فمِن الناس مَن يكون مَلِكًا، ولٰكِن الله مَلِك يموت ويحيىٰ، مَلِك يَعِزّ تارَةً ويَذِلّ أخرىٰ، مَلِك يكون من حاله ما يكون، أما الله – جل وعلا – فمُلْكُه كامل، لا تأخذه سِنَة ولا نوم ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[البقرة:٢٥٥]، ملوك البشر ليسوا بشيء عند مُلك الله جل وعلا ؛ لهذا مُلك الله مطلَقٌ وأسماؤه كاملةٌ؛ وكذلك صفات الله جل وعلا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورىٰ]، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر:٢٣] إلىٰ آخر التسعة والتسعين اسمًا التي مَن أحصاها دخل الجنة(١)، وفيها غاية الكمال والعظمة: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم:٦٥]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورىٰ] .

إن الإيمان بالأسماء والصفات وبتوحيد الأسماء والصفات يُكْسِبُ قلب المؤمن محبةَ لله في أسماء الجمال، وخوفًا من الله في أسماء وصفات الجلال، فتأمَّل قول الله جل وعلا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة] ذكر –جل وعلا – ربوبيته للعالمين وتربيته لهم وأنك لولا تربية الله لك

(١)أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨٥)، ومسلم (رقم ٢٦٧٧) .

بتدريجه لك في رحِم أمك إلىٰ أن بلغت إلىٰ هذا الحال، وبتدبيره لك في الإيمان لم تكن شيئًا، فمن تأمل ذلك وتدبره أحب مَن أحسن إليه، وهو الله ؛ لأنه أسدىٰ إليه النعم .

ثم إذا تأمل ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾[الفاتحة] أحدث في قلبه محبة ورجاءً.

ثم إذا تأمل اسم الله ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾[الفاتحة] أحدث في قلبه الخوف والهلع من ذلك اليوم .

فإذن الأسماء والصفات الإيمان بها له الأثر في حياتك، وإذا علِمت أن الله يسمع كل شيء، حتىٰ إنه يسمع دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة السوداء في ظلمات الليل، يسمع ذلك ويراه فإلىٰ أين تذهب؟! وممَّن تتخفىٰ؟! الله – جل وعلا – يعلم خائنة الأعين وما تُخفِي الصدور، ويعلم مجاريَ القُوت في أعضاء البعوض وفي عروقها، فإلىٰ أين تذهب؟! وممن تتخفىٰ؟! ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:٦١] .

إذا علِمت أن الله جبار فاخضَعْ له، وإذا علِمت أن الله مُعِزّ فاطلُبْ عِزّته، واعلم أنك عزيز بعزة الله، وإذا علِمت أن الله هو المُعِزّ المذِل فاخشَعْ أيها الذي غرتك عزتك، وغرك جاهك، وغرك مالُك أن يقلب الله عليك الأمر فتكون بعد العزة ذليلًا، يُعِزّ من يشاء ويذل من يشاء تبارك وتعالىٰ .

تأمل الأسماء واسكُبِ الدَّمْعَ من العين لله – جل وعلا – في خلوةٍ لعلك أن تكون ممن قال فيهم نبينا ﷺ: «**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ** »(١) .

وأما **توحيد الألوهية** فمعناه: أنك لا تعبد إلا الله جل وعلا، ولا تتوجه بالدعاء ولا بالاستشفاء ولا بطلب الشفاعة ولا بطلب أي شيء من حاجاتك إلا من الله جل وعلا، أما الخلق الأحياء الحاضرون فإنهم إذا كانوا يقدِرون علىٰ نفعك فإنما هم أسباب، أما التوجه للموتىٰ وللصالحين بعد موتهم في قبورهم بأن يُستغاث بهم أو يُذبح لهم، أو يُنذر لهم، أو تُطلب شفاعتهم فإن هذا في الحقيقة هو عبادة غير الله، وهو الذي قال الله – جل وعلا – في وصف أهله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[الصافات].

وهم الذين قال الله – جل وعلا – فيهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص].

وهم الذين قال الله – جل وعلا – في وصف عبادتهم للأموات: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل] .

فهؤلاء المشركون في الجاهلية قد عبدوا أنواعًا من المعبودات، ومن هذه المعبودات الأموات الذين هم ليسوا بأحياء، فهم وإن كانوا أحياء في قبورهم بحسَب ما هو مقدَّر لهم بما في عِلم الله – جل وعلا – حياة بَرْزَخِيَّة تناسبهم، إما أن يكونوا في نعيم وإما أن يكونوا في جحيم ؛ ولكن حياتهم تلك ليست بحياة من يُسأل، وليست بحياة من يُطْلَب منه، ولهذا قال – جل وعلا – في وصفهم: ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يعني أنهم لا يدرون متىٰ تقوم الساعة.

(١)أخرجه الترمذي (رقم ١٦٣٩) .

إذن فالذين عبدوا مع الله آلِهةً أخرىٰ ليسوا بموحِّدين، والذين توجهوا إلىٰ الوليِّ الفلاني فعبدوه؛ إلىٰ البَدَوِي أو العيدروس أو إلىٰ الحَسَن، أو إلىٰ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أو إلىٰ الباقر، أو إلىٰ الكاظم، أو إلىٰ ما شئت من الأسماء ؛ فإنهم في الحقيقة عبدوا غير الله، وما وحَّدوا الله جل وعلا، فهم في الحقيقة مشركون بالله – جل وعلا – في ألوهيته، ولو تأمَّلوا حق الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته لَمَا توجهتْ قلوبهم إلا إلىٰ الله جل جلاله.

أيها المؤمنون، هذه كلمات قليلة في هٰذا الأمر العظيم الذي به بُعِثَتِ الرُّسُلُ، وبه أُنزلت الكتب، فهذا الأمر ثُلُث القرآن بنص النبي عليه الصلاة والسلام، فسمىٰ نبي الله – عليه الصلاة والسلام – سورة الإخلاص بهذا الاسم لِمَا اشتملت عليه من أنواع التوحيد الثلاثة، وليس فيها غير التوحيد، وهو ثلث القرآن .

لهذا واجبٌ عليك أن تُحْيِيَ قلبَك بمحبة الله والإخلاص له وبالتدبر في ملكوت الله جل وعلا ؛ فإن التدبر في ملكوته، وفي أسمائه وصفاته، يُحدِث للعبد أنه لا يتوجه إلا إلىٰ الله، ولا يرغب إلا إلىٰ الله، يأنس بالله، ويمتثل لِذِكره، ويعلم قيمة كلامه، ولقد أحسن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ وكلامه من أحسن الكلام ؛ إذ يقول في هٰذه المعاني: «عاملنا القلوب بالتفكر» يعني: في آلاء الله، وفي توحيده، وفي كتابه « فأورثها التذكر، فرجعنا بالتذكر علىٰ التفكر » يعني مرة أخرىٰ بعد أن تذكرنا تفكرنا، فأحدث لنا فكرًا جديدًا، وعملًا وعلمًا صالحًا محدَثًا جديدًا، قال: « وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار » فما أحسن هذا الكلام!

أما أن نترك قلوبنا مع زحمة هٰذه الحياة ومشاغلها ولهوها وغفلتها، فهذا يميت القلوب:

رأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ ... وقد يُورِثُ الذلُّ إدمانَها

وتَرْكُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسِكَ عِصيانُها[1]

اللَّهمَّ نسألك... اللَّهمَّ اجعلنا مِمَّن أحصىٰ أسماءَك الحسنىٰ، وأدخلتَه الجنة يا أكرم الأكرمين، اللهم فاغفر وتُبْ علينا جميعًا .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذِّكر الحكيم .

أقول قولي هٰذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المؤمنين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله علىٰ إحسانه، والشكر له علىٰ توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «بهجة المجالس» ونسبه إلىٰ عبد الله بن المبارك، باب: من المواعظ الموجزة .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ..

فإن أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هديُ محمدِ بنِ عبدِ الله، وشرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بِدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وعليكم بالجماعة؛ فإن يدَ الله مع الجماعة، وعليكم بلُزُوم تقوىٰ الله؛ فإن بالتقوىٰ والخوف من الله – جل وعلا – رِفْعَتَنا ومقامنا عند الله جل وعلا، اللهم اجعلنا من المتقين.

عبادَ الله، إن الله – جل وعلا – أمرنا بأمرٍ بدأ فيه بنفسه فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب]، اللّٰهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علىٰ عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وارضَ اللهمَّ عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدِلون، وعنا معهم بعفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهمَّ أعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ الشِّرك والمشركين، واحمِ حَوزة الدين، وانصر عبادك الموحِّدين.

اللّٰهمَّ أمِّنَّا في دُورنا، وأصلِح أئمتنا ووُلاة أمورنا، ودُلَّهم اللّٰهمَّ علىٰ الرشاد، اللّٰهمَّ دلهم علىٰ الرشاد وباعِدْ بينهم وبين سبل أهل الكفر والبغي والفساد، يا أرحم الراحمين .

اللّٰهمَّ واصرفنا وإياهم إلىٰ ما تحب وترضىٰ، واجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ يا أكرم الأكرمين .

اللّٰهمَّ إنا نسألك أن ترفع عنا الربا والزنا وأسبابهما، اللّٰهمَّ وارفع عنا أسباب غفلة القلوب، وأسباب قسوة القلوب، اللّٰهمَّ نشكو إليك قسوةً في قلوبنا، اللّٰهمَّ فليِّنْها بتوحيدك، اللّٰهمَّ نشكو إليك غفلةً في قلوبنا وصدرونا، اللّٰهمَّ فأيقِظْ غفلتنا، اللّٰهمَّ فأيقِظْ غفلتنا، واجعلنا منيبين إليك خاضعين لك، مقبِلين عليك، مسبِلين الدمع بين يديك، يا أكرم الأكرمين .

عِبادَ الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل]، فاذكروا الله العظيم الجليل يَذْكُرْكُم، واشكروه علىٰ النِّعم يَزِدْكُم، ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[العنكبوت].